إسلامية الشخصية في روايات نجيب الكيلاني[1]

Islamization of the characters in the Najib Kilani's novels

Peribadi Islam dalam karya Najib Al-kilani

محمد بن يحيى أبوملحة*

ملخص البحث

لقد كان (نجيب الكيلاني) من أبرز روّاد الأدب الإسلامي من خلال أعماله التنظيرية، والإبداعية. ويعد عنصر الشخصية من أبرز العناصر الفنية في العمل القصصي. ومن ثم، نجد أن (الكيلاني) وسع هذه الدائرة لتنتظم الشخصيةُ الإسلاميةُ تحت لوائها: المهندسَ، والطبيبَ، والمثقّفَ، والعامي، والعامل، والفلاح، حين يتمثّل الواحد منهم الإسلام في مبادئه وسلوكه. فقد قدّم صورة أخرى لتلك الشخصية، صورة حقيقية تصور بعض النماذج السلبية لتلك الشخصية، ثم نقدها نقدًا بنّاء، وقدّم في المقابل نماذج أخرى إيجابية.

الكلمات المفتاحية: نموذج- الصوفي- السلبية- المثقف- الإيجابية.

Abstract:

Najib Kilani is one of the prominent figures in Islamic literature known through his theoretical works and creative writings in the field of Islamic literature. The characters in novels are the most notable creative feature in narrative works. In this regard, we found that Najib Kilani broadened the scope of characters in order to toe the line with the characteristics of Islamic characters such as the

* أستاذ الأدب الحديث المساعد بجامعة الملك خالد – السعودية

engineer, the doctor, the cultured, the ordinary, the worker, the farmer; whose characters and principles became more Islamic. On the other hand, he also presented a different picture of those characters by shedding the light on their negative sides before subjecting them to a constructive criticism while presenting other positive samples of characters.

Keywords: Sample – the sufist – the negative - the cultures – the positive.

Abstrak:

Najib Al-kailani merupakan antara karyawan yang terkenal dalam dunia sastera islam menerusi karyanya yang kritis dan kreatif. Keperibadian watak adalah salah satu unsur yang sangat penting dalam menghasilkan sesuatu cerita. Dalam pada itu, Najib Al-kailani dilihat cuba meluaskan skop ini dengan memasukkan unsur keperibadian muslim dalam watak-watak seperti jurutera, doktor, ahli akademik, rakyat biasa,pekerja, petani yang mana salah satu daripada mereka membawa imej islam dan berpegang kepada prinsip-prinsipnya. Di samping itu, beliau cuba mengetengahkan beberapa gaya perwatakan iaitu gaya perwatakan yang sebenar yang menggambarkan keperibadian yang negatif, kemudian mengkritiknya dengan kritikan yang membina, dalam masa yang sama beliau turut membincangkan perwatakan lain yang positif.

Kata kunci: model- sufi – negatif- berpendidikan – positif.

تمهيد

لقد كان للروائي نجيب الكيلاني مكانةٌ بارزةٌ في عالم الرواية العربية، وحصد عددًا من الجوائز الأدبية العربية والعالمية.[٢] كما كان الكيلاني من أبرز روّاد الأدب الإسلامي من خلال أعماله

التنظيرية، والإبداعية: فأما التنظيرية فتمثّلها كتبه الرائدة حول الأدب الإسلامي مثل: (مدخل إلى الأدب الإسلامي)، و(الإسلامية والمذاهب الأدبية)، و(تجربتي الذاتية في القصة الإسلامية)، و(آفاق الأدب الإسلامي)، وأما أعماله الإبداعية فقد زاد عدد أعماله القصصية على أربعين عملاً ما بين قصة ورواية؛ وقد كرّمته رابطة الأدب الإسلامي، ومنحته درع الرابطة بوصفه رائد القصة الإسلامية الحديثة[٣]، وهذه الإسلامية التي تطبع كثيرًا من أعمال الكيلاني هي "مفتاح أدبه بأبعاده الإنسانية، وانتصاره لقيم الحق والعدل"؛[٤] ومن هنا آثرتُ أن يكون هذا البحث متّجهًا إلى هذه الخاصية يستجليها من خلال عنصرً فنّيٍّ من أبرز عناصر البناء الفني الروائي، وهو عنصر الشخصية.

"إن الشخصية هي التي تكون واسطة العقد بين جميع المشكّلات الأخرى، حيث إنها هي التي تصطنع اللغة، وهي التي تبعث أو تستقبل الحوار، وهي التي تصطنع المناجاة، وهي التي تنجز الحدث، وهي التي تنهض بدور تضريم الصراع وتنشيطه ... وهي التي تعمر المكان ... وهي التي تتفاعل مع الزمن".[٥]

وإذا كانت هذه مكانة عنصر الشخصية بين العناصر الفنية الروائية فإن مكانتها أكثرُ خطرًا، وأجلُّ شأنًا في مجال حمل الأفكار؛ إذ إن الشخصيات هي "مركز الأفكار، ومجال المعاني التي تدور حولها الأحداث ... فالأفكار تحيا في الشخصية، وتأخذ طريقها إلى المتلقي عبر أشخاص معينين لهم آراؤهم، واتجاهاتهم، وتقاليدهم".[٦]

لقد أدرك الكيلاني أن كثيرًا من كتّاب الرواية العرب مارسوا عدوانًا على الشخصية الإسلامية؛ حيث شوّهوا صورتها وجعلوها مثالاً للانتهازية، والغفلة، والجشع، بحجة الواقعية، ولكنها واقعية لا ترى إلا الجوانب السلبية، وقد وجد الكيلاني أن: "رجال الدين في قصصنا العربي الحديث يظهرون في أغلب الأحيان رمزًا للبلاهة والسذاجة المفرطة، ومثالا للقذارة والشعوذة، وأنموذجا للسلبية المشينة ... وهكذا تجمّدت قوالب رجال الدين في قصصنا في تلك القوالب المستعارة من أدب الغرب، وأصبحت مثالاً مكرّرًا ممجوجًا يوحي بالنفور

والازدراء"،[٧] مع أن الشخصيات الإسلامية في واقع مجتمعنا العربي والإسلامي هي التي قادت حركات التنوير والإصلاح، ومواجهة الاستعمار والاحتلال –كما يقرّر الكيلاني –؛[٨] ولذا فقد اجتهد في أن يبرز الصورة الحقيقية لتلك الشخصيات، صورة حقيقية تصور بعض النماذج السلبية لتلك الشخصية، ثم تنتقدها نقدًا بنّاء، وتقدّم في المقابل نماذج أخرى إيجابية للشخصيات الإسلامية، إنها ليست صورة مشرقة دائمًا؛ لأن "الشخصيات يجب أن تخضع لنواميس الله في خلقه، فيكون فيها القوة والضعف، والأمانة والخيانة، والصمود والتراجع، كما أن طبيعة الحياة أن تحفل بكلّ ما يتعلق بالإنسان من عواطف ومشاعر وأفكار، وليس من الضروري دائما أن تكون هذه المثالية محلّقة".[٩]

لقد كان هذا الجهد – حسب وجهة نظري – من أبرز ما ميّز أعمال نجيب الكيلاني عن غيره من الأدباء العرب. وممّا ميّزه – أيضًا – ارتقاؤه بمفهوم الشخصية الإسلامية، وتوسيع دائرتها، فبينما كان بعض الأدباء – وكذلك بعض الدارسين – يختزل الشخصية الإسلامية في أولئك الذين يقومون بوظائف دينية كإمام المسجد، والمؤذّن، والمأذون الشرعي، ونحو ذلك؛ نجد أن الكيلاني يوسع هذه الدائرة لتنتظم الشخصيةُ الإسلاميةُ تحت لوائها: المهندسَ، والطبيبَ، والمثقّفَ، والعامّي، والعامل، والفلاح، حين يتمثّل الواحد منهم الإسلام في مبادئه وسلوكه.

وسوف أعرض في بحثي هذا نموذجين من نماذج شخصيات الكيلاني التي تصوّر هذه الصبغة الإسلامية: نموذج شخصية الصوفي، ونموذج شخصية المثقف.

نموذج[١٠] شخصية الصوفي:[١١]

إذا كانت كثير من الروايات العربية تصوّر (الصوفي) درويشًا مغفَّلاً، فإن كثيرًا من روايات نجيب الكيلاني تصور الصوفي ذا ذكاء وفراسة، فالشيخ (عبد الله) في رواية (عمالقة الشمال):

"كان ذكيًّا ذا فراسة ... كأنه محلل نفساني من الطراز الأول عن موهبة فطرية ، وحسٍّ غريزي..."[١٢].

وكذلك كان الشيخ (أبو المجد شاهين) في رواية (ملكة العنب).[١٣]

وإذا كانت كثير من الروايات العربية تصوّر (الصوفي) متعلّقًا بالدنيا متلهّفًا على المال – وإن ادّعى الزهد – فإن روايات الكيلاني تصوّر هذا الزهد حقيقيًّا، وله أثره الإيجابي في شخصية الصوفي؛ فيجعلها أبيّةً على الذل، عصيّةً على الهوان، كريمة مطاعة – كما يصورها نجيب الكيلاني– فقد كان زهد الصوفي سببًا رئيسًا لشجاعته، تلك الشجاعة التي أورثته إعجابَ الناس به، وحبَّهم له؛ فبعد أن رفض الشيخ (الشاذلي) دعوة (سلطان) لاستقبال (عثمان باشا) في رواية (رأس الشيطان): "نظر الناس إلى رجل بسيط لا يملك مالاً ولا سلاحًا، لكنه لا يرضخ لأوامر الباشا، ولا يكترث لها، يا لها من حقيقة رائعة .. الشاذلي المتصوف أقوى من الباشا الوزير، لم يمت الأمل بعد أيها المعذبون مادام هناك رجل طيب أقوى من الباشا ... وبدا الشيخ في نظرهم عملاقًا جبّارًا يستحق الاحترام"[١٤].

ولعلّ هذا يقودنا إلى تساؤل مهمّ: هل شخصية الصوفي في روايات نجيب الكيلاني شخصية إيجابية أم سلبية؟ فالشخصية الإيجابية هي التي "تتميّز بقدرتها على صناعة الأحداث، والمشاركة في تطوّرها، واغتنام الفرص التي تسهم في تشكيل حركة الحياة والتأثير فيمن حولها من الشخصيات، واتخاذ مواقف إيجابية في انفعالاتها ومشاعرها ومواقفها مع الآخرين".[١٥] أما الشخصية السلبية فهي "ذات طابع محايد تقف على شاطئ الأحداث ترقب تيّارها المتدفّق المتلاطم من بعيد ... تتلقّى الأحداث كما تجيئها ... وهي تعاني من القهر والإحباط و العزلة، وتعيش عالمها الداخلي تجترّ ذاتها، وتلوك أمانيها، وتعيش في أحلام اليقظة .."[١٦].

إن من المعروف عن الصوفية في العصور المتأخرة أنها تبتعد دائمًا عن أحداث الواقع، وتنأى عن الخوض في قضايا المجتمع الاجتماعية والاقتصادية، وتنأى بشكل أكبر عن

القضايا السياسية، أما الجهاد والمقاومة فهي أبعد ما تكون عنها، إلا أن الكيلاني في عرضه نماذج هذه الشخصية حاول تقديم صور مختلفة؛ فأحيانًا نرى صورة الصوفي السلبي الشائعة، وأحيانًا نرى صورةً مزدوجة للصوفي تصور الخلوة والتفرّغ للتعبّد إلى جانب المشاركة في هموم المجتمع، ومحاولة استيعاب قضاياه المختلفة والتأثير فيها. إلا أنني حين تتبعت روايات نجيب الكيلاني رأيت النماذج السلبية لشخصية الصوفي محدودة جداً، وحين يوردها فإنه يجعلها شخصيات ثانوية في الرواية، بل ويقدّم في الغالب انتقادًا لها بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، أما الشخصية التي يبرز الجانب الإيجابي فيها بوضوح فهي الصورة التي حفل بها (نجيب الكيلاني)، وجعل بعض نماذجها شخصيات رئيسة في كثير من رواياته.

أبدا فأقف عند بعض النماذج السلبية للشخصية الصوفية، فمنها أولئك الصوفيون الذين صور الكيلاني عدم مشاركتهم في الإعداد لمقاومة الحملة الفرنسية على مصر "ففي ساحة واسعة رأى الحاجّ (مصطفى البشتيلي) حشدًا ضخمًا من رجال الطرق الصوفية والدراويش والعامة، وقد نصبوا محضر ذكر كبير، وأخذوا يجأرون إلى الله : يا لطيف الطف بنا .. نحن عبيدك كلنا، وغير ذلك من عبارات الابتهال والدعوات يردّدونها ألف مرّة، وهذا – كما يقول بعضهم – كفيلٌ بأن يردّ كيد الأعداء إلى نحورهم، ويشتّت شملهم".[١٧] ولم يترك المؤلف المجال هنا لتتسرّب هذه الفكرة السلبية إلى ذهن القارئ بل حرص على نقدها حين أورد قول (الحاجّ مصطفى) لولده: "انظر : إنهم يتخبطون. الدعاء وحده لا يجدي يا ولدي، لابد أن يحملوا السيف ويهرولوا إلى ميدان القتال، تلك هي العبادة الحقة".[١٨] ولم يكتفِ المؤلف بذلك بل أمعن في نقد تلك الصورة السلبية بأن أورد صورة إيجابية مقابلة لها: "فقد أشار (الحاجّ مصطفى) بيده إلى ناحية أخرى تجمّع فيها بضع مئات من الشبان حول مدفعين قديمين يتعلمون كيف يطلقونهما ثم قال: هذا هو الأسلوب الذي يجدي في الحروب".[١٩]

وهكذا اضمحلّت تلك الصورة السلبية وتلاشت أمام عين القارئ.

كذلك جاءت شخصية الصوفي السلبي هامشيةً في رواية (اعترافات عبد المتجلي) لم تستغرق سوى صفحات محدودة جدًّا، وقد حاول هذا الصوفي – من خلال كلماته – أن يثنيَ بطل الرواية (عبد المتجلي) عن مشاركته الإيجابية في قضايا مجتمعه فقال له: "اعلم أن للبيت ربًّا يحميه ... وأنك تافه ... والملك لصاحب الملك ... وابدأ بنفسك وبمن تعول ... وعُدْ من حيث جئت، وازرع أرضك، وقل للناس حسنًا، وأقم الصلاة .. واقرأ كتاب الكون الكبير قبل أن تقرأ كتب السياسة".[٢٠]

وهكذا حاول هذا الصوفي حشد جمْعٍ من عباراتٍ يستخدمها المثبّطون لثني العزائم، والقعود بالهمم إلا أن تلك المحاولات لم تثنِ بطل الرواية ولم تضعف من إيجابيته وفاعليته، وبهذا ذهبت أدراج الرياح. وفي مقابل هذه الشخصيات الصوفية التي تمثل الجانب السلبي تجاه أحداث المجتمع أجد أن الكيلاني قد قدّم شخصيات صوفية أخرى فيها قدر كبير من النضج والإيجابية والفاعلية تجاه قضايا المجتمع. وبعد استقرائي لنماذج تلك الشخصية الصوفية الإيجابية وجدت أن بعضها قد اقتصر دوره على الجانب الاجتماعي فقط مع البعد عن الجانب السياسي، ومن أولئك: الشيخ (المدّاح) في روايته (قضية أبو الفتوح الشرقاوي) الذي كان: "يتصدّق على الفقراء والمساكين، ويطعم الجائعين، ويهدي الضالين، ويصلح بين المتخاصمين، ويعيد المطلقات إلى أزواجهن ... إذا قامت فتنة ساهم في إخمادها، وإذا توترت النفوس رطّب القلوب بالحبّ والحنان".[٢١]

وهذه الأدوار كلها في المجال الاجتماعي، أما المجال السياسي فإن الشيخ (المدّاح) يرفض الخوض فيه نهائيًّا يتضح رفضه لذلك في شرحه الخاطئ حيث "أخذ الشيخ يشرح لهم معنى قوله تعالى: (عليكم أنفسكم ...) فالإنسان – حسبما يقول – عليه أن يهتمّ أولاً بذكر الله .. وعدم الانشغال بأمور السياسة ... ويبدو أن مثل هذا الكلام لم يجد قبولاً لدى بعض الشباب الذين يتلقّون العلم في المدارس والجامعة والأزهر إذ قال أحدهم: ألا ترى يا

مولانا أن مستقبل الأمة مرتبط بالسياسة المتبعَة؟؟ بان الغضب في وجه الشيخ ... وقال : لعن الله السياسة .. وساسَ ويسوس وما اشتق منها".[٢٢]

والكيلاني – من خلال هذا الحوار – أراد أن ينتقد تلك النظرة حول السياسة ويفنّدها، فأتى بتلك الجملة المعترضة: (فالإنسان – حسبما يقول –)، وكأنما خشي أن يتبادر إلى ذهن القارئ أدنى شكّ بأنّ هذه هي النظرة الصحيحة فبادر – من خلال هذه الجملة المعترضة – إلى نفي تلك الفكرة، وإن كنت أفضّل لو أن الكاتب لم يورد هذه الجملة الاعتراضية لأن فيها تدخلاً مباشرًا منه، وكان يكفيه ما ساقه من كلام ذلك الشاب المثقف الذي أفحم بحجّته الشيخ (المدّاح)؛ وذلك لأن الكاتب الموهوب هو الذي يعتمد التلميح بدل التصريح، ويتحاشى التدخّل المباشر، أو الفجّ المكشوف، وبخاصة في الموضوعات السياسية، والفكرية، والقضايا الاجتماعية الساخنة.[٢٣]

ويرى البعض أن الكاتب يجب أن يكون موضوعيًّا ومحايدًا تمامًا تجاه ما يكتب، ويرى آخرون أنه لابد له من أن يكون منفعلاً بما يكتب، ومنغمسًا في كتابته. والصحيح: أن الحياد الكامل أمر غير واقعي؛ وذلك لأن الكتابة في درجة الصفر المطلق أمر لا وجود له كما يقرّر عدد من النقاد مثل (جنيت) و (كوهين) و (رولان بارت).[٢٤] فلاشك في أن كل كاتب يصدر عن إيديولوجيا معينة[٢٥]. وفي المقابل فإن الظهور المكشوف للمؤلف أمر غير موضوعي!, وبناءً على ما سبق فإن الصيغة الوسطى تبقى مفضَّلةً بحيث يحاول الكاتب التباعد الملائم بينه وبين عالم الرواية[٢٦]. وكان يمكن للكيلاني أن يتخفّى خلف قناع شخصية الشاب الأزهري هنا ليدليَ بوجهة نظره دون تدخّل مباشر من الكاتب.

وأما شخصية (أبو المجد شاهين) في رواية (ملكة العنب) فقد صورها الكيلاني متدرّجًا بها من السلبية والانطواء إلى الإيجابية والمشاركة الفاعلة في جميع قضايا المجتمع، مع الوعي السياسي المتميز للأحداث، فبعد أن كان يؤثر الانطواء والعزلة، بدأ في الاندماج مع الأحداث، والدخول في خضم قضايا المجتمع المختلفة، وكانت البداية لهذه الإيجابية اعتقال

الشيخ (محمد أحمد حسب الله) في قضيةٍ صغيرةٍ قام رجال الأمن بتهويلها وتضخيمها إلى أبعد مدى عندها قال الشيخ (أبو المجد شاهين): "هذا زمن التمثيل والتمثيليات، لقد تربّع التليفزيون على العرش .. الآن أصبحنا نصنع الوقائع ونشكّلها حسب هوانا .. ليس لدينا واقعية .. نحن نعيش أضغاث أحلام شريرة .. نؤلّف الأدوار ونركّبها على الأشخاص .. آه يا دنيا السلبيات والأكاذيب ... ولم يكن الرجل الزاهد الورع يتصور أن كلماته ستصل بسرعة البرق إلى بعيد، فيأتون في المساء ويقبضون عليه".[٢٧]

وهكذا قُبِض على الشيخ الصوفي فدخل في غمرة الأحداث، وناله من الضرب والإهانة والتعذيب الشيءُ الكثيرُ ممّا جعله يبدأ في التساؤل بينه وبين نفسه – وهذه بداية التحول الكبير من السلبية إلى الإيجابية – فقد "قفز إلى ذهنه سؤال: ما العمل؟ أجاب على نفسه: مزيد من الطاعة .. مزيد من الصبر .. مزيد من العمل. ثم تساءل: هذا طيّب لكن أي عمل؟ هنا يكون التفكير، والتفكير عندئذ سياسة .. أنا أمقت تلك السياسة ... لكن بدون شك سير الأمور على هذا النحو مفسدة وبوار .. أيمكن أن يوجد الإنسان الحق وهو مسلوب الإرادة والكرامة؟ شعر أبو المجد بحيرة لم يألفها طول حياته".[٢٨] وبعد هذه الحيرة وهذا التفكير كان التحول الإيجابي في شخصية (أبو المجد شاهين) حيث إنه صار يفقه واقع مجتمعه، بل يعي كثيرًا من الأحداث السياسية العالمية، فإبّان الغزو العراقي للكويت كان الشيخ ينفعل لتلك الأحداث، ويتواصل مع إخوانه المسلمين في كل مكان، ويقدّم تحليلاً دقيقًا واعيًا للأحداث، فقد شهق باكيًا ثم قال: "جهة الشرق .. المسلم يذبح أخاه المسلم .. والسماء تصبّ الحمم على الأبرياء .. والأرض تنفجر بالنار.. والعمائر والمصانع والمتاجر ينهبها المغول ويدمرونها ... الذئب يريد أن يحكم بالعدل وينصف الفقراء .. إبليس يدعو الناس إلى المحبة والمواساة والحب والإيمان .. وأعدى الأعداء يجلس إلى منصّة القضاء ليحكم بين المتنازعين ..".[٢٩]

وهكذا وظّف الكيلاني هنا تقنيةً فنيةً ناضجة، ونمطًا فريدًا من أنماط الشخصية الروائية، وهو نمط الشخصية النامية وهي التي تنمو خلال الرواية، وتمتاز بالتحوّلات المفاجئة القادرة على إقناع القارئ،[٣٠] وهو المستوى الناضج فنّيًّا بحيث تنمو الشخصية تدريجيًّا من خلال الرواية وعبر أحداثها، وتتحوّل من حال إلى حال، وهذا ما وجدناه في شخصية (أبو المجد شاهين) حيث تحوّلت من حال السلبية إلى الإيجابية بطريقة مقنعة للقارئ، من خلال تطوّر أحداث الرواية التي انعكست على الشخصية، وفي رحلة التحوّل هذه رسائلُ ورؤىً يبعثها الكاتب إلى قُرّائه، ومفادها أنه آن الأوان لهؤلاء الصوفيين أن يتحوّلوا من السلبية والانطواء والعزلة إلى الإيجابية والفاعلية والمشاركة.

بل إن بعض النماذج الصوفية صُوِّرت بصورة إيجابية متقدّمة، حتى إنها لتشارك في الجهاد في سبيل الله، فإبّان الثورة ضد الاحتلال الإنجليزي في مصر كما صورت رواية (مملكة البلعوطي) "خطب الشيخ (الشاذلي) مؤكّدًا أن الجهاد أصبح فرض عين، وأن على الجميع أن يبادروا بحماية إسلامهم وكرامتهم وأعراضهم وأموالهم دون أن يخافوا في الله لوم لائم".[٣١]

وقد نتساءل: هل الصوفيون في واقعنا المعاصر على هذه الدرجة من الإيجابية والوعي كما صوّر الكيلاني؟ وفي الإجابة عن هذا التساؤل أقدّم تعليلين:

الأول: أنه ربما كانت بعض الشخصيات الصوفية التي عايشها نجيب الكيلاني في حياته تتميز بهذه الميزة وتجمع الزهدَ والخلوةَ، والإكثارَ من الذكر والصلاة مع المشاركةِ الإيجابية في قضايا المجتمع المختلفة، والمساهمةِ في حمل هموم الأمة؛ ولذا أُعجِب نجيب الكيلاني بها، وعدّها النموذج الأمثل للصوفي وصورها في رواياته على هذا الأساس.

والتعليل الثاني: أنه ربما رأى نجيب الكيلاني أكثر المتصوفين في هذا العصر سلبيين ومنطوين فأراد من خلال رواياته – بطريقة غير مباشرة – أن يوقظهم وينهض بهممهم ليعودوا إلى النهج الإيجابي الصحيح الذي يجمع الزهدَ والإكثارَ من الذكر مع حملِ هموم الأمة، وإصلاحِ المجتمع، والجهادِ في سبيل الله – سبحانه وتعالى – وهو النهج الذي كان عليه المتصوفون

القدامى من السلف الصالح قبل أن تنحرف الصوفية، ومن هؤلاء القدامى الأفاضل: إبراهيم بن أدهم (ت ١٦١ هـ)، وأبو القاسم الجنيد (ت ٢٩٧ هـ)، وعبد القادر الجيلاني (ت ٥٦١ هـ) – رحمهم الله تعالى – ولعل هذا ما أشار إليه الكيلاني حين ذكر وجود شخصيات سلبية من هؤلاء في رواياته فقد قال: "أما أن تظهر شخصية من هذا النوع وفيها جانب من جوانب الضعف الإنساني، فهو الصواب بعينه، ألا يمكن أن يكون هذا الضعف أو النقص مدعاة لاتخاذ موقف أو حكم بالنسبة لبعض السلبيات في حياة بعض المتصوفين، وأن هذا التصوير يكون مقصودًا بذاته؟".[٣٢]

وبعد هذه الجولة مع نموذج شخصية الصوفي أقف وِقفةً أخرى متأنّية عند نموذج شخصية المثقّف.

نموذج شخصية المثقف:

على الرغم من أن الكيلاني قد وظّف عدة شخصيات لتقديم الرؤية الإسلامية للحياة وللإنسان فإني أرى أن نموذج شخصية المثقف هو النموذج الأقرب إلى روح الكيلاني، وفكره، وطبيعة حياته؛ ولذا فقد آثرته بالحديث في هذه الصفحات. وأعني بالمثقف هنا من حصّل قدرًا مناسبًا من التعليم كأن يحصل على شهادة جامعية أو يُشهَد له بالتميز الثقافي في المجتمع المحيط به كقريته مثلاً، وربما يكون مدرسًا متميزًا، أو طبيبًا، أو مهندسًا، أو محاميًا، أو أستاذًا جامعيًّا وهكذ، ويكون بالطبع ذا توجه إسلامي حتى يمكن تناوله في إطار هذا البحث.

لقد كانت الشجاعة والوضوح والإقدام من الصفات التي خلعها الكيلاني على نماذج شخصية الإسلامي المثقف في رواياته، فشخصية (عبد المتجلي) مثلاً تتحلّى بهذه الصفات، وكانت هذه الصفات هي السبب الأساسي في الأحداث والصراعات التي حفلت بها رواية (اعترافات عبد المتجلي)؛ فشجاعته تلك دفعته ليصطدم بعمدة القرية والمجلس المحلي،[٣٣]

وهي التي دفعته بعد ذلك ليقوم برحلته التي تشكل المحور الأساسي في الرواية، وألمس صراحته وشجاعته ووضوحه في كثير من مواقف الرواية.[٣٤] وكذلك أجد أن الشيخ (محمد حسب الله) في رواية (ملكة العنب) كان ينطلق من شجاعته في قول الحق، والدفاع عنه مهما خالف أهواء الوجهاء والأثرياء والأقوياء.[٣٥]

وكذلك كان الطبيب (راضي) في رواية (أهل الحميدية)[٣٦].

ومن الصفات التي يتمتع بها الإسلامي المثقف الإرادة القوية، وهي صفة أساسية عند الناجحين في الحياة، وبصفة أخصّ عند حملة المبادئ ورجال الفكر الإسلامي، فالطبيب (محمد صادق)– مثلاً – في رواية (الذين يحترقون) كان: "يُخضِع كلَّ شيء لمنطقة الواضح، وإرادته الحديدية، وضميره النظيف".[٣٧] والشيخ (محمد حسب الله) :" له إرادة حديدية تمكّنت عبر سنوات الصبر والمعاناة".[٣٨] وهكذا أجد أن الشجاعة في الحق، والوضوح، والإقدام، والإرادة القوية صفات أساسية بل تكاد تكون ملازمة لمعظم الشخصيات الإيجابية التي قدمها نجيب الكيلاني نماذج لشخصية الإسلامي المثقف؛ ولعلّ السبب في ذلك هو أنه لابدّ من توافر تلك الصفات للصدع بالحق ونشر الخير، وتحمّل الأذى في سبيل ذلك، ومواجهة أمواج الإغراءات والتهديدات المختلفة التي تعترض سبيل الإسلامي المثقف.

ومع تأصّل الشجاعة والإقدام في تلك الشخصيات إلا أنها شجاعةٌ منضبطة، وإقدامٌ متوازن، فالراوي يقول عن الطبيب (راضي) في رواية (أهل الحميدية): "إنه متزنٌ عاقل، ولديه خبرة عميقة بأمور الحياة، ثم إنه وفيٌّ أمين".[٣٩] فهنا الوفاء والأمانة والاتزان، وكلها صفات تنبع من المنهج الإسلامي. إن من إيجابية المثقف الإسلامي أنه يشتغل بدعوة الناس إلى سبيل الهدى والرشاد. والأسلوبُ الدعوي الذي ينتهجه الإسلامي المثقف هو الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، بعيدًا عن العنف أو استخدام القوة أو إراقة الدماء، فهذا الطبيب (راضي عبد الباقي) يقف أمام زملائه من الأطباء والطلبة في أحد المدرّجات المكتظّة

ويقول: "نحن لا نعادي أحدًا، ولا نطمع في السلطة، ولا ندبّر مؤامرات، ولا نبارك العنف والإرهاب، ولكننا نطلب العدل للجميع، والحرية للجميع، والأمن للجميع، في إطار شرع الله".[٤٠] وحين قالت (نبيلة) للأستاذ (عبد العزيز السيسي) في رواية (رحلة إلى الله) بعد أن طفح بها الكيل، ورأت الظلم والهوان: "نقتل .. ندمّر .. ننتقم .. إن عشراتٍ ماتوا غدرًا داخل السجون .. فلماذا لا نموت بثمن .. نَقتُل ، ونُقتَل ... بذلك يكون لتضحيتنا معنى .. ابتسم عبد العزيز، وهز رأسه قائلاً: إنني أختلف معك ... هذا النظام لا يمكن تغييره إلا بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، التغيير يجب أن يبدأ من عقول الناس ووجدانهم".[٤١]

وقد صور الكاتب أن الإسلامي حين يحيد عن هذا النهج الأصيل ويحاول التغيير بالقوة واستعجال قطف الثمار فإنه لا يجني شيئاً بل يقدّم تضحياتٍ بلا ثمن، فهذا (أبو الحسن) في رواية (عذراء جاكرتا) حين انفعل، وصرخ في الجموع بكلّ ما يريد قوله بتسرّع دون مراعاة لطبيعة الظروف التي تمرّ بها بلاده، ودون التزام بالتدرّج؛ عند ذلك تعرّض للسجن والاضطهاد دون نتيجة تُذكَر، ونجده في السجن "يفكّر فيما فعله، لقد طبع بعض المنشورات والملصقات، ثم ألقى كلمات ملتهبة .. هذا كل ما في الأمر، فماذا كانت النتيجة؟! إنه الآن مقدَّمٌ للمحاكمة، وتلقّى العديد من الإهانات ... لقد شعر آنذاك بتفاهته، وتفاهة العمل الذي قام به، كان ما فعله نوبة صرع لم تبدِّل شيئاً في الأوضاع القائمة الفاسدة".[٤٢]

وهكذا حاول الكاتب رسم المنهج الصحيح للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ذلك المنهج الذي يعيشه الدعاة بصدق وحب وإخلاص، ويضحّون في سبيله بالغالي والنفيس دون عنف أو قوة بل بالحكمة والموعظة الحسنة مهما واجه من عنف وإيذاء من الطرف المقابل، إنه منهج يستمدّ أصالته من سيرة المصطفى – صلى الله عليه وسلم – وقد وصفه

الأستاذ (عبد العزيز السيسي) حين سألته (نبيلة): "أين الطريق؟ فقال مرتّلاً آية من القرآن: "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين".[٤٣]

وقد وصف (عثمان أمينو) في رواية (عمالقة الشمال) هذا الطريق في لغة شاعرية معبّرة، فقال:

"نحن الدعاة إلى الله ..

طريقنا الحبّ الطاهر بكل ألوانه الباهرة ..

غذاؤنا الأمل ..

وطريقنا يمتدّ إلى بعيد .. لا يقطعه الموت، أو تطمسه العواصف ..

فالركب السائر إلى الله في صدق لا يضلّ الطريق .."[٤٤].

عبر هذه التموّجات الشاعرية والمنحنيات الشعورية، نرى الدعاة إلى الله، نرى الحبّ، نرى الأمل، نرى الحياة، إنه حب (طاهر) حب سامٍ ، يتسامى (عثمان) في وصفه حتى يلوّنه بالألوان الباهرة فهل كان للحب ألوان؟! إن النفس الشاعرة حين تَشِفّ ترى تلك الألوان الزاهرة. أما الغذاء فهو الأمل.

إن وجود الأمل مهمٌّ لضبط المسار، والمحافظة على منهج الاعتدال؛ لأن الذي يفقد الأمل قد يلجأ إلى العنف؛ فيدمّر، ويفجّر! لا بدّ من وجود الأمل، الأمل الذي غنّى له نجيب الكيلاني في رواياته كثيرًا: "نحن ضعفاء يا عبد المغيث أمام القوة الغاشمة، لكننا نحرس الأمل ونغنّي له، إن أغنيات الليل الطويل هي طلائع الفجر".[٤٥] هكذا تحدث (راضي) في حواره مع (عبد المغيث)، وجاء ذلك في سياق إصرار الثاني على فقدان الأمل والأمن في بلاده، وعلى أن التضحيات ضاعت هباءً، ولكن يأبى (راضي)، ويأبى نجيب الكيلاني، ويأبى المصلحون والشرفاء إلا أن يظلّوا يحرسون الأمل. وبحسّ الفنان المرهف يستخدم الكيلاني هنا الأفعال المضارعة (نحرس)، (نغنّي)، والفعل المضارع – كما هو معلوم – يفيد التجدّد

والاستمرار، ليتجدّد الأمل، ويستمر البذل والعطاء. وقد جاء هذا الحوار بين (راضي) و(عبد المغيث) بعد أن صوّرت الرواية الابتلاءات التي صبّتها القوة الغاشمة الجائرة على الشرفاء الأبرياء؛ فثبت لها (راضي) وتزعزع أمامها (عبد المغيث)؛ فلا عجب إذن أن يبقى الأمل حيًّا في صدر (راضي)، ويغلب الحزن واليأس على نفس (عبد المغيث). وبرغم طول الليل فإن أغنيات الأمل هي طلائع الفجر تبشّر بأن "المستقبل يولد كل يوم"،[٤٦] كما يقول (عبد المتجلي) في (اعترافاته).

وفي غمرة التعذيب والظلم والهوان يبقى الأمل بازغًا في صدر (محمود صقر) في رواية (رحلة إلى الله)، وفي رؤيا منامية يرى محبوبته، ويصف ذلك فيقول: "وجاءت حبيبة قلبي أمل كانت تلبس زيّها الشرعي المعروف ... وجهها كالملائكة، عيناها تمطران حبًّا وحنانًا فيورق قلبي المجدب ...".[٤٧] هذه المحبوبة اسمها (أمل) ولا شك أن هذا الاسم يحمل بذاته دلالات بليغة، وكما يقول (ألبرت كوك): "إن واقعًا تسجيليًّا يمكن أن نشعر به كامنًا في مجرّد الأسماء المعطاة للشخصيات".[٤٨]

وقد صوّر الكاتب هذه المحبوبة وكأن عينيها سحابتان أو غمامتان تمطران، ولكنهما لا تمطران ماء بل حبًّا وحنانًا وذلك ما كان (محمود) بأمسّ الحاجة إليه، وقد جعل مصدر هذا المطر (عينَي) المحبوبة، وليس شيئاً سواهما، وللعينين عند المحبين دلائل وإشارات ورموز، ولهما – دون ما سواهما – لغة خاصة. ثم يوغل الكاتب في هذه الصورة الاستعارية ليجعل قلب (محمود) يورق بعد أن كان مجدبًا، حينما فاض عليه هذا المطر، مطر الحب والحنان. إن المثقّف الإسلامي يحبّ؛ لذا لا يستخدم العنف، ولا يتعامل بغلظة مع من حوله، إنه يحب الله، كما قال (الشيخ عبد الله) لتلميذه (عثمان أمينو): "العبادة يا ولدي حب .. والجهاد في سبيل الله حب .. وتنفيذ شرائع الله حب .. هل فهمت الحب؟".[٤٩]

وهو كذلك يحبّ وطنه، يقول (المهندس عبد القادر) – معبّرًا عن حبه لوطنه وانتمائه إليه– في رواية (ليالي السهاد): "إذا سافرت فسأحمل الوطن في قلبي .. سيكون أغنيتي في

الصباح والمساء ... إني أسافر من أجل وطني .. وطني هو حياتي".[٥٠] ويقول الشيخ (حاجي محمد إدريس) في رواية (عذراء جاكرتا): "أنا رجل أحب العلم والتقدم، وأريد لبلدي الحرية والعدل .. والمواطنون جميعًا إخوة في ظل شريعة الله".[٥١]

إن الكيلاني يصوّر حب المثقّف لوطنه في توازن ووعي، ويقرّر الكيلاني في بعض كتبه النظرية أن "الإسلامية لا تمانع من أن يحب الإنسان موطنه ويخلص له، لكنها تقف في وجهه إذا تحول الحب إلى عصبية عمياء تصادم المثل العليا والمبادئ الدينية المؤكّدة".[٥٢] وليس الهمُّ الذي يحمله المثقّف همَّ الوطن فحسب، بل همّ الأمةِ كلها، وهمّ كلِّ مؤمنٍ في الأرض، فهذا الطبيب (رشدي القصاص) في رواية (رجال وذئاب) يقول: "إن أوضاع العالم تؤرّقني، أشعر أحياناً أن مصير كل مؤمن أمانة في عنقي .. لا أستطيع أن أراه يسقط في بئر عميق، أو ينجذب إلى نار عاصفة .. أو يهوي في قاع الظلم والقهر، إني أتعذّب من أجل الآخرين".[٥٣]

الخاتمة:

لقد رأينا في روايات نجيب الكيلاني –كما عرض هذا البحث – شخصيات صوفية إيجابية، على الرغم ممّا اعتدناه من رؤية الشخصيات الصوفية سلبيةً ومنطويةً، ورأينا من بين شخصيات المثقّفين من الأطباء، والمهندسين، والأدباء شخصياتٍ تحمل الفكر الإسلامي وتنتصر له وتضحّي في سبيله على الرغم ممّا اعتدناه من أن الشخصيات الدينية في الروايات مقصورة على شخصية إمام المسجد والمؤذّن ونحو ذلك!

لقد قدّم نجيب الكيلاني الكثيرَ لمسيرة الرواية العربية، ولرسالة الأدب الإسلامي، وكان أبرز ما قدّمه –كما يزعم هذا البحث– أنه أعاد رسم خارطة الشخصيات الإسلامية، ورفع – من خلال قلمه الأدبي وإبداعاته القصصية – الجورَ عن هذا النموذج من الشخصيات التي تعرّضت للتشويه على أيدي كثيرٍ من الكتّاب العرب الذين قلّدوا النموذج

المشوّه للشخصية الدينية في الأدب الغربي عن قصدٍ من أولئك الكتّاب العرب ووعي، أو عن عدم وعي، ولمجرّد التقليد الأعمى! ولكن الكيلاني) لم يقدّم تلك الإنجازات على الصعيد الموضوعي فحسب، بل كان مخلِصًا لفنّه وأدبه؛ فكان — في الغالب – يحافظ على معايير الجودة الفنية الراقية في بنائه لتلك الشخصيات؛ فلم يجعلها شخصياتٍ مسطّحةً ثابتةً لا تريم عن صفاتها المثالية، ولا تتزعزع عن مبادئها القيميّة؛ بل كان يجعلها تعيش حياتها الروائية بشكلٍ طبعي: تتزعزع حينًا، وتثبت حينًا، تضعف أحيانًا، وتقوى أخرى. وكلّ هذه التقلّبات تدعم تشكيل الكيلاني للمعمار الروائي الإسلامي.

هوامش البحث:

[١] نجيب الكيلاني بن كامل بن إبراهيم، وُلِد سنة ١٩٣١م، وقد عمل طبيبًا بعد تخرّجه في كلية الطب، وهاجر إلى الكويت، ثم إلى دبي، ثم عاد إلى مصر، وتوفي بها سنة ١٩٩٥م. (انظر: الدكتور نجيب الكيلاني في سطور، **مجلة الأدب الإسلامي**، العددان التاسع والعاشر، رجب وذو الحجة، ١٤١٦هـ).

[٢] المرجع السابق.

[٣] المرجع السابق.

[٤] قميحة، جابر، "الأصول الموضوعية لأدب نجيب الكيلاني"، **المجلة العربية**، العدد ٢٢٦، أبريل ١٩٩٦م.

[٥] مرتاض، عبد الملك، "في نظرية الرواية– بحث في تقنيات السرد"، **عالم المعرفة**، الكويت، ديسمبر ١٩٩٨م، ص١٠٣-١٠٤.

[٦] عثمان، عبد الفتاح، **بناء الرواية: دراسة في الرواية المصرية**، (مكتبة الشباب، ١٩٨٢م)، ص ١٠٧.

[٧] الكيلاني، نجيب، **الإسلامية والمذاهب الأدبية**، (مؤسسة الرسالة، ١٩٨٧م)، ص٢٤.

[٨] انظر: المصدر السابق، ص٣٤—٣٥.

[٩] المصدر السابق، ص٤٩.

[١٠] الشخصية النموذجية هي التي تمثل طبقة اجتماعية كاملة، أو تمثل شريحة من المجتمع بمختلف أفرادها. انظر: عثمان، عبد الفتاح، **بناء الرواية: دراسة في الرواية المصرية**، ص١٢٢.

[١١] التصوف : حركة دينية انتشرت في العالم الإسلامي عقب اتساع الفتوحات وازدياد الرخاء الاقتصادي، وكانت ردة فعل مضادّة للانغماس في الترف الحضاري مما حمل بعضهم على الزهد الذي تطور بهم حتى صارت لهم طريقة مميزة باسم

(الصوفية)، وكانوا يتوخون تربية النفس والسمو بها، لكنهم جنحوا في المسار بعد ذلك حتى تداخلت طريقتهم مع فلسفات هندية وفارسية ويونانية مختلفة. انظر: **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، (الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٩م)، ص٣٤١.

[١٢] الكيلاني، نجيب، **عمالقة الشمال**، (بيروت: دار النفائس، ط٩ ، ١٩٨٦م)، ص١٣٧.

[١٣] انظر: الكيلاني، نجيب، **ملكة العنب**، (بيروت: دار ابن حزم، ط٢، ب.ت.)، ص١٥٦-١٥٧.

[١٤] الكيلاني، نجيب، **رأس الشيطان**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م)، ص٩٥.

[١٥] عثمان، عبد الفتاح، **بناء الرواية: دراسة في الرواية المصرية**، ص٢٠.

[١٦] المرجع السابق.

[١٧] الكيلاني، نجيب، **مواكب الأحرار**، (بيروت: مؤسسة الرسالة ، ط٦ ، ١٩٩٧م)، ص٢٤.

[١٨] المصدر السابق.

[١٩] المصدر السابق.

[٢٠] الكيلاني، نجيب، **اعترافات عبد المتجلي**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٩٧م، ص٧٥-٧٨.

[٢١] الكيلاني، نجيب، **قضية أبو الفتوح الشرقاوي**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٩٩م)، ص٧٠.

[٢٢] المصدر السابق، ص٣٩-٤٠. و(المائدة: ١٠٥).

[٢٣] انظر: طه وادي، **الرواية السياسية**، (القاهرة: دار النشر للجامعات المصرية، ط١، ١٩٩٦م)، ص٥٤.

[٢٤] انظر: فضل، صلاح، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، (الكويت: عالم المعرفة، ١٩٩٢م)، ص٦٧.

[٢٥] انظر: تاديه، جان إيف، **الرواية في القرن العشرين**، ترجمة وتقديم: محمد خير البقاعي، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م)، ص١٣٧-١٣٨.

[٢٦] انظر: فضل، صلاح، **بلاغة الخطاب وعلم النص**، ص ٢٨٣.

[٢٧] الكيلاني، نجيب، رواية **ملكة العنب**، ص ٤٦ - ٤٧.

[٢٨] المصدر السابق، ص ٦٨.

[٢٩] المصدر السابق، ص١١٠-١١١.

[٣٠] انظر : نجم، محمد يوسف، **فن القصة**، (بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٩٦م)، ص٨٣—٨٦ .

[٣١] الكيلاني، نجيب، رواية **مملكة البلعوطي**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٩م)، ص٢١٣.

[٣٢] الكيلاني، نجيب، **رحلتي مع الأدب الإسلامي**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٨٥م)، ص٥٦.

[٣٣] انظر: الكيلاني، نجيب، (**اعترافات عبد المتجلي**)، ص١١.

[٣٤] انظر: المصدر السابق، ص١١٦.

[٣٥] انظر: الكيلاني، نجيب، **ملكة العنب**، ص١٠، وص٩٦.

[٣٦] انظر: الكيلاني، نجيب، **أهل الحميدية**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٩م)، ص١١٥ وما بعدها.

[٣٧] الكيلاني، نجيب، **الذين يحترقون**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٩م)، ص١٩٣.

[٣٨] الكيلاني، نجيب، **ملكة العنب**، ص ١٦٧.

[٣٩] الكيلاني، نجيب، **أهل الحميدية**، ص٦٩.

[٤٠] المصدر السابق، ص١١٥.

[٤١] الكيلاني، نجيب، **رحلة إلى الله**، (دون ذكر الناشر، ط١، ١٩٧٩م)، ص٣٦٠.

[٤٢] الكيلاني، نجيب، **عذراء جاكرتا**، (بيروت: دار النفائس، ط٧، ١٩٨٣م)، ص٩٠-٩١.

[٤٣] الكيلاني، نجيب، **رحلة إلى الله**، ص٤٤٠. و(يوسف: ١٠٨).

[٤٤] الكيلاني، نجيب، **عمالقة الشمال**، ص١٨٤.

[٤٥] الكيلاني، نجيب، **أهل الحميدية**، ص٢٤٨.

[٤٦] الكيلاني، نجيب، **اعترافات عبد المتجلي**، ص٤٨.

[٤٧] الكيلاني، نجيب، **رحلة إلى الله**، ص٣٨.

[٤٨] نقلاً عن د. طه وادي، **دراسات في نقد الرواية**، (القاهرة: دار المعارف، ط٣، ١٩٩٤م)، ص٢٣٨.

[٤٩] الكيلاني، نجيب، **عمالقة الشمال**، ص٣٤.

[٥٠] الكيلاني، نجيب، **ليالي السهاد**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٥، ١٩٩٩م)، ص٢٤.

[٥١] الكيلاني، نجيب، **عذراء جاكرتا**، ص٥١.

[٥٢] الكيلاني، نجيب، **الإسلامية والمذاهب الأدبية**، ص ٦٩.

[٥٣] الكيلاني، نجيب، **رجال وذئاب**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٩٩م)، ص٨٨.